الوَفَاةُ المُؤْلِمَةُ لِرِيسْكِي

هيثم الوزيري

الكتـــــــــاب | الوَفَاةُ المُؤْلِمَةُ لِرِيسْكِي
المـــؤلـــــــف | هيثم الوزيري
رقـم الإيـــداع | 15243 / 2013
الترقيم الدولي | 978 – 977 – 6447 – 12 – 7

التجهيز الفنى: حسين الحماقـــى
الغـــــــلاف: أحمد الملواني
المراجعة اللغوية: إيمان الدواخلي
الإشراف العام: عيد ابراهيم
محمد عبد الجواد
مدير قسم النشر: فتحى المزين
Fathy66666666@yahoo.com
01282288056

جميع الحقوق محفوظة
وأى أقتباس أو تقليد أو إعادة طبع
- دون موافقة كتابية -
يعرض صاحبه للمساءلة القانونية

العجوزة : 60 عمارات الإعلام خلف السيرك القومى ، الدور الرابع ، شقة 407
الهاتف : 0233044831
البريد الإليكترونى : ibda3666@gmail.com

الوَفَاةُ المُؤْلِمَةُ لِرِيسْكِي

هيثم الوزيري

إهـــداء إلـــى

- يوسف إدريس . . أحمد خالد توفيق
- تولـكين . . إيمان السباعي
- الشيماء حامد

إهـــداء

- إلى من تحمل شفتاه دفء الابتسامة
ويفيض صوته على العالم بهجة . .
إلى محمد فوزي

إهـــداء أخـــير..

- إلى شعاعات ملتمعة في السواد اللانهائي..
- روح سليمان.. فاطمة خطاب
- عمر الوزيري.. علي الوزيري
- أحمد الملواني.. إسلام محمود
- رانيا منسي.. نادين أيمن

وقت الأصيل

الشمس تلملم حاجياتها وتستعد للمغادرة.. أشعتها البرونزية ترصع البيوت والطرقات بعروق من ضوء.. الشارع يبدو كمضمار سباق مهجور، وقد هدأت فيه حركة المرور. وكجمل في صحراء شاسعة كان يسير، يداه في جيبي بنطاله، عيناه مربوطتان إلى أسفلت الطريق بحبل خفي.

تاك.. تاك..تاك.. تاك..

تنتبه حواسه للصوت..

تاك.. تاك.. تاك.. تاك..

الصوت من خلفه.. لا شعوريا ارتبك إيقاع خطوه المنتظم..

تاك.. تاك.. تاك.. تاك

حذاء نسوي سريع الخطو..

الموجة الأنثوية تعبر بجواره، ثم تتجاوزه مع لفحة من عطر فاغم.. موتور جهازه العصبي يدور.. عيناه تتحرران قليلا من السجن الأسفلتي.. يطالعه كعب عال رفيع يدق الأرض، يحمل فوقه كاحلين كقالبين من المربى، اختلط بياضهما بحمرة خفيفة.

أعصابه الآن مشدودة كوتر كمان جديد.. عيناه تصافحان ساقين طريين يبدو عريهما لا نهاية له إلا من رداء قصير.

يحث الخطى وراء موكب الأنوثة.. يداه خرجتا من جيبه، وقد استخدمهما كمجدافين ليستطيع مجاراة سرعتها.

الساقان تسلمان عينيه إلى ردفين رجراجين، يتمايلان يمنة ويسرة، وكأنما ضربهما زلزال خفيف.. يميلان إلى اليمين، حتى يكادا أن ينسكبا، ثم يعودان فيعتدلا.. ثم يتدحرجان ذات الشمال فيظن أن سينكبا، فيعودا ويعتدلان

فلا يعرف هل هما يبدآن من اليمين أم من اليسار.. بلا بداية ولا نهاية، كحركة الكون، وكدوران الالكترونات حول نواتها.

يسرع.. يكاد يجري..

تاك.. تاك.. تاك.. تاك

بوم.. بوم.. بوم.. بوم.. قلبه يدوي كقصف المدافع.. يقترب كثيرا.. يكاد أن يبلغ هدفه..

أشارت إلى تاكسي، ركبته واختفت..

ارتخت أعصابه.. هدأت سرعته.. عادت يداه إلى جيبه..

وواصل طريقه!

حدث في يوم الجمعة

أنتفض قائما من الفراش.. كالعادة استيقظت متأخرا، أصوات ميكروفونات المساجد تدك خلايا أذني السمعية. مسرعا أتوضأ، أضع نفسي في قميص وبنطلون، أسرع إلى الشارع .

اللون الأصفر يغلف الوجود.. ذرات صغيرة من غبار صارت هي الواقع الوحيد. الشمس حاضرة بقوة، وكأن قرص الشمس قطع بالتساوي بين الجميع، وأن لكل نصيبه الذي لا محالة حاصل عليه. آخذ نصيبي فوق رأسي وأمضي، وسط محاولاتي للتنفس، التي لم تسفر إلا عن قيامي بتنظيم رحلة للغبار لزيارة معالم جهازي التنفسي.

داخل المسجد مكتظ بالذين جاءوا مبكرين، ليجلسوا متمتعين بهواء المراوح، بدلا من الجلوس في الشارع في هذا القيظ. أجلس على حصير تعلوه مظلات قماشية للحماية من

الشمس، لم تشفع للمصلين عند اللفح الساخن للهواء.

-» **اليوم أيها الأخوة الأحباب نتحدث عن موضوع شائك.. أثار حيرة الكثيرين ووجدت أنه من واجبي نحو أخواني المسلمين المؤمنين أن أوضح ما غمض عليهم في هذا الموضوع. أحبتي في الله، نتحدث اليوم عن حرمة الأكل في صحاف من ذهب..** «

أنظر حولي.. الرجل الجالس عن يميني في حوالي الخمسين، بين لحظة وأخرى يهز رأسه في خشوع، وتتحرك شفتاه بتمتمة مبهمة.. مُصلٍ آخر استغل وقته في النوم، وقد راح رأسه ينزلق ببطء، على صدره أولا، ثم يندفع صادما ذقنه برقبته، فينتفض فاتحا عينيه فجأة.. ينظر يمينا ويسارا، يتأكد أن لا أحد يراه، ثم بالتدريج أيضا تنغلق عيناه مرة أخرى، ويواصل رأسه رحلة الصعود والهبوط.

الرجل يخطب منذ ساعة.. أنشغل في متابعة ساقي تلك الفتاة اللتين تبدوان من ثوبها القصير، بينما تمر هي أمام

الحصر.. ثم أتذكر أنني في المسجد، فأهز رأسي بعصبية، محاولا طرد تلك الأفكار السافلة.

-» ذلك هو عهدي بكم أيها الأخوة الأحباب.. ما من مرة دعا الداعي إلى الإنفاق في سبيل الله إلا كنتم السباقين.. أنشأنا بفضل الله وفضلكم تلك المظلة الحامية من الشمس..»

أخرج منديلي مجففا عرقي، وأنا أحاول تحريك الهواء بكفي الآخر..

-» إن هذا المسجد يقوم بدور خدمي على أعلى مستوى. وجزى الله القائمين عليه كل خير، فهم دائما ما يقدمون كل غال ونفيس ابتغاء مرضاة الله.. وإخوانكم في المسجد قرروا إنشاء مستوصف لعلاج المحتاجين وأهالي المنطقة بأجر رمزي».

مرت نصف ساعة أخرى..

-» أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم وأقم الصلاة«

-» **الله أكبر... الله اكبر**»

أتنفس بصعوبة..

-»**اشهد أن لا إله إلا الله..... أشهد أن محمدا رسول الله**»

مازلت أحاول التنفس..

-»**حي على الصلاة... حي على الفلاح**»

أحاول الوقوف، لأكتشف أن ساقيّ تحولتا إلى طبقين من المهلبية..

-»قد قامت الصلاة.. قد قامت الصلاة»

تحول النهار إلى ليل، وقد شعرت فجأة أن النور انطفأ.. أعراض نقص الأكسجين المعتادة..

-»**الله أكبر... الله أكبر... لا إله إلا الله**»

أتمكن من الجلوس قبل أن أسقط أرضا.. أبدو كحفرة وسط المصلين..

-»يقول الله تعالى (مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء) فنناشدكم يا إخوان سرعة التبرع لبناء المستوصف، حيث إن الله يحب المنفقين من عباده.. ونبشركم بأننا قد عزمنا بعد بناء المستوصف على أن ننشئ مركزا للكشف بالآشعة..»

أتلفت حولي محرجا من مظهري.. لأول مرة سأضطر لأن أصلي قاعدا.. أحاول الوقوف مرة أخرى.. نعم.. هكذا.... النور ينطفئ مرة أخرى. أسارع بالجلوس، ولا أعرف كيف انتهت الصلاة. وجدتني أقوم، وقد اندفعت في عروقي قوة ما كنت أحسبها لدي، خاصة بعدما كدت أسقط أرضا.. ربما هو الأدرينالين.. سارعت أزيح الناس من طريقي.. فضولي يتزايد لرؤية الشيخ.. ذلك طبعا قبل أن أسلخه بلساني.. جلباب أبيض لا يصل طوله إلى نهاية الساقين.. شال أبيض ملفوف على الرأس، وقد فاض وتدلى إلى ما خلف الرأس حتى نهاية العنق.. منظار ذو

عدسات مستديرة.. ولحية طويلة بلا شارب. الوجه أبيض، على قدر من الوسامة.

بخطوات ثابتة أقترب منه.. أشعر أن جميع العيون ترمقني. في المعتاد، يجعلني ذلك متوترا؛ لكن غضبي يجعلني لا أكترث. أمد له يدي مصافحا، ثم أذكره بحديث الرسول صلى الله عليه وسلم، الذي يحض على التخفيف في الصلاة، مراعاة لظروف الناس.. أخبره أنه ظل يخطب ساعة ونصف تحت المراوح، بينما الناس ملقون خارجا يحترقون بلفح الحر، بينما هو لا يشعر بشئ..

-» ألم تمش في الشارع اليوم؟» هكذا أقول له.. الابتسامة تضيق.. الوجه يحمر.. هنا أفطن لأول مرة أنه لم يترك الميكروفون من يده بعد.. بل أنه يصعد المنبر..

-» أيها النااااس.. من للإسلام.. من للإسلام.. صدقت يا رسول الله حين قلت.. بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ.. هذا الرجل.. ولكن لا.. لن أسميه رجلا.. هذا

الذي لا أعرف له اسما.. «

الناس ينظرون لي شذرا..

-» **هذا الشئ.. يقول بأنه حران من الشمس.. حران يا خويا.. شوية شمس ح يموتوك.. وا اسلامااااااااااااااااااااه.. وا محمداااااااااااااااااااااه «**

طبعا كل محاولاتي لتبرير موقفي ضاعت سدى.. بعضهم يحاول الفتك بي..

-»الصحابة رضوان الله عليهم.. كانوا يجاهدون في سبيل الله بأنفسهم وأموالهم.. كانوا يتلقون ضربات السيوف فما وهنوا لما أصابهم وما ضعفوا ولا استكانوا.. ايها المسلمون.. ايها المؤمنون.. الله الله في الاسلام.. الله الله في القرآن»

أشعر بأني أتضاءل حتى أكاد أن أكون غير مرئي.. أتراجع وسط الزحام.. الزحام الذي تحول إلى بلاعة عملاقة.. أختفي تدريجيا.. حتى الرجل نسيني، وانخرط

في خطبة عصماء، وكأنه موشك على تجييش المصلين ليحرر بهم القدس.. تناسى الجميع وجودي، وكأنني لم أكن موجودا منذ البدء.. لم يبق إلا الشيخ وميكرفونه وصوته العالي.

بـــرودة

منذ أسبوع كامل، كانت الأمنيات بحياة سعيدة لا تفارقه. هو لا يستطيع الآن أن ينظر إلى عيني أحدهم. منذ صغره كانوا يقولون:

«شحاتة ابن الحديدي عينه بجحة وقوية»..

يوم أن حاول الغفير محروس أن يزنق محاسن بائعة الجبن القريش بين عيدان الذرة.. يومها كان ماراً سمع استغاثة محاسن.. لم يحتج منه الأمر إلى أكثر من شخطة قوية، كانت كافية لأن يرمح محروس وسط العيدان، وهو ينكفئ ويقوم. كلما رآه محروس صار يتوارى منه.. ترى هل يتوارى الآن إذا عرف ما أصابه؟

في الغيط، بات يحس بجسده يهتز، يداه ترتعشان، صار لا يقف في مكان واحد أكثر من ثانية. يغير وضع قدميه

أكثر من مرة وهو واقف، يحس صوته مرتعشا وهو يزعق في الأنفار.. للمرة الأولى يصفع مجاهد العامل في أرضه.. بدا غير مصدق لما يفعله.. حتى عندما هوت كفه الضخمة على صدغ مجاهد، بدا وكأنه يشاهد شخصا آخر يفعل ذلك. وها هو الآن يطوف بالشوارع الباردة، يلعب مع الوقت لعبة طول النفس.. يتمنى ألا يعود إلا عندما يغمر صمت النوم أرجاء بيته.

قدماه تكادان تتجمدان من البرد.. دار راجعا.. إنها العودة إلى نجاة مرة أخرى.. ربما يجدها قد طارت أو سرقها عفريت.. لكن البيت مظلم إلا من غرفة النوم.. مضجعة على السرير وقد ارتدت قميص النوم الأحمر الذي اشتراه لها بنفسه.. نعم بنفسه.. ساقها اليسرى البيضاء تبدو من فتحته وحتى فخذها.. أسبوع كامل يرى نهديها يطلان من القميص.. يحاول تخيل شكل الجزء المختفي منهما تحت القميص.. هل حلمتاها ورديتان أم بنيتان؟..وهل هما صغيرتين كقلب الياسمينة أم كبيرتين كقلب زهرة عباد الشمس.

تنظر له.. تعض شفتها السفلى.. يقترب منها ملتمسا سخونة مزعومة بين فخذيه.. يتوقف أمامها.. يهم بلمسها.. البرودة الشديدة تجتاحه.. يحاول النظر في عينيها.. الأرض تشد عينيه بقوة.. يتراجع بظهره للباب.. يدخل حجرة الكراكيب الغارقة قي الظلام مغلقا بابها من الداخل.

جنيه واحد

يصعد إلى الميكروباص.. ينغز الجالس أمامه بيده ملوحا بعشرة جنيهات، مشيعا إياها بقوله: «واحد»..

يتشاغل بالنظر من الشباك ريثما يبعث السائق بالباقي.. الوقت يمر... يتململ في جلسته.. يرفع عقيرته بالصياح مطالبا السائق بباقي العشرة.. السائق يتلكأ قليلا.. ينظر في المرآة الأمامية التي تكشف له كل الركاب وكأنما يبحث بعينيه عن الذي تجرأ وطالب بالباقي.. يسدد الرجل إليه نظرة تقول -» أنا.. هل من مشكلة؟» يبعد السائق عينيه عن المرآة في استسلام ويرسل الجنيهات التسع الباقية.

تحسست يده الخمسة جنيهات المطوية على أربعة من المعدن. قبل أن يضعهم في جيبه، انسل جنيه من بين أصابعه غاطسا في قاع أرضية السيارة.. جفل.. أضاء شاشة

الموبايل محاولا رؤيته.. بدا له قاع السيارة كفم حيوان متوحش ابتلع الجنيه بلا رجعة.

يتلفت ذات اليمين وذات اليسار، يتحسس بيديه أماما وخلفا.. شريكه في المقعد ينحني لمساعدته في البحث..

ساد التوتر في الميكروباص.. الجالسون في المقعد الأمامي أرسلوا رؤوسهم لزيارة أرجلهم في قاع السيارة على هامش البحث عن الجنيه الضائع..بدا له حماسهم مبالغ فيه مما أورثه حاله من التوتر..

-» **لا شئ**»

فرقة البحث فشلت في العثور على الجنيه الضائع.. لا يدري لما شعر بالارتياح لأنهم لم يجدوه.. مازال أمامه الوقت.. هو سينزل آخر الخط، وسيبحث كما يشاء بعد أن ينزل الركاب.

الميكروباص يتوقف لإنزال دفعة جديدة ..

-»**من صاحب الجنيه الضائع؟**» **صاحت إحدى**

السيدات وهي تهم بالمغادرة

ابتلع ريقه وأشار إلى أنه الشخص المقصود.. السيدة وجدته بجوار الباب.. كيف وصل إلى هناك؟ لا يدري!.. ابتسمت مطالبة إياه بالنصف.. تكرمشت الابتسامة الخشبية التي رسمها على وجهه.. ربما تكون جادة فيما تقول!.. اتسعت ابتسامتها أكثر وهي تمد يدها بالجنيه إليه.. اختطفه من يدها شاكرا إياها.. دسه في جيبه.

دعـوة

ارتفعت يده مشيرة إلى ذلك التاكسي، قبل أن يطير متبخرا.. لا يريد أن يتأخر.. أول موعد له مع (ليليان).. في شقتها.

تعرف إليها عبر الانترنت.. مطلقة هي في الأربعين.. قررت أن تكتفي بالعلاقات العابرة.

لقاءان فقط بإحدى الكافيتريات.. أعجبها هو.. ليلة واحدة لن تضر، وحتى لو طالت العلاقة، فزواجه بالنسبة لها أمر ثانوي.

كذب على زوجته بقصة مفبركة.. أشار بيده مرة أخرى.. هذه المرة نجح في القبض على التاكسي.

(ليليان) نموذج نسوي لم يقابله من قبل.. هي بالكاد

تعرفه، ومع ذلك تدعوه إلي بيتها.. وبرغم أنه يصغرها بعشر سنوات، إلا أنه قرر خوض التجربة.. خشي قبل أن يلقاها أن تكون مقلبا.. فعالم الانترنت ملئ بالزيف، وأسهل ما فيه الكذب.. لكنها لم تكن تكذب.

أمام باب شقتها دق الجرس.. انتزع دبلة الزواج من يده اليسرى ودسها في جيب البنطلون.

انفتح الباب.. (ليليان) ترتدي فستانا أحمر بلا أكمام، وقد انسدل شعرها الفاحم على جانبي رأسها في خيوط سوداء.. سحبته من يده إلى الداخل.. تصاعدت دقات قلبه داخل أذنيه.. جف حلقه.. التصق بالفوتيه المريح، حيث أجلسته في الصالة متوسطة المساحة. تحسس جيبه حيث أسقط الدبلة.. سمعها تناديه من الداخل.. صوتها الناعم يتخلله.. تنادي مرة أخرى.. بصره معلق بمدخل الطرقة التي تتفرع من الصالة، والتي تحجب عنه جلسته رؤية ما بنهايتها. هب واقفا.. «إلى أين تذهب؟».. لا يدري متى وجدها تحيطه بذراعيها، وتسحبه خلفها، وقد فاح منها

عطر غريب.

مخدرا مسلوب الإرادة ساقته وراءها، وقد تفككت أوصاله لمرآها في رداء نومها القصير. وإلى غرفة مظلمة في نهاية الطرقة دلفت، جارة إياه خلفها.. وانغلق الباب.

على ظهره كان راقدا، عيناه ناظرتان لأعلى.. ثيابه ملقاة.. بطنه العارية مفتوحة وخالية.

رائحة

قبل أن يهم بالخروج، ألقى نظرة على المرآة المجاورة لباب الشقة.. رفع خصلة شعره، التي دائما ما تتدلى على جبهته. بعد رشتين من زجاجة العطر، صار جاهزا للخروج..

في الشارع، كان للهواء رائحة غير مريحة.. رائحة شيء ما تتدافع إلى أنفه.. تسارعت خطاه ليخرج من ذلك الشارع، الذي باتت الرائحة فيه لا تطاق.. حبس أنفاسه، وتحدى نفسه ألا يتنفس حتى يبلغ نهاية الشارع.. حذاؤه يصفع الأسفلت صفعات متتابعة.. رئتاه تصرخان.. دمه يثور مطالبا بالأكسجين.

عندما وصل إلى نهاية الشارع، أزاح السدود عن رئتيه، ليندفع إليها الهواء.. سيل من ذرات الأكسجين يتدفق إلى

خلايا دمه الحمراء.. هدأت ضربات قلبه.. انقبض صدره.. فما زالت الرائحة حاضرة.. وضع نفسه في ميكروباص، ورغما عنه تنفس روائح الأنفاس الكريهة، والعرق، والثياب (المكمكمة) مختلطة برائحة المقاعد الجلدية للسيارة. يحاول أن يفتح شباكا في علبة السردين هذه بلا جدوى.. الرائحة الأولى ذهبت، وربما اختفت وخفتت أمام طوفان الروائح هذا.. كل الركاب متقلصة أنوفهم اشمئزازا، في لوحة مجسدة للقرف.

عندما نزل إلى الشارع مرة أخرى، كانت الرائحة قد عادت تزكم أنفه.. الناس يزاولون حياتهم بطريقة عادية، كما لو أن عطبا ما قد أصاب أنوفهم.

يصعد السلالم مسرعا إلى حيث بيت صديقه.. يطرق الباب.. الصديق يستقبله بترحاب.. انفرجت أساريره هو، فقد خفت الرائحة، وها هي الرائحة العطرة للمنزل تحاول

الانتصار على الرائحة الأخرى، ودفعها جانبا تمهيدا لإسقاطها تماما.

صديقه يتراجع، واضعا يده على أنفه، وقد صار وجهه كالورقة (المكرمشة).

عتبة الغرق

نفذ طعامي وشرابي.. سأغادر المدينة، ربما إلى مدينة أخرى أو قرية مجاورة.. أجمع بعض قطع من ملابس ثقيلة.. أضع حقيبتي على ظهري وأخرج.

الوقت، لا أعرف صباحًا هو أم مساء، فلا شمس ولا قمر يظهران في السماء الرمادية. هناك ضوء، ولا أدري من أين يأتي.. بالكاد أرى الموجودات بلا تفاصيل.. أحاذر من الاصطدام بجذوع الأشجار ذات الأفرع المدببة العارية من الأوراق.. أشم رائحة القئ التي تملا الهواء.. أخوض في الطرقات، وقد وصل البلل إلى منتصف ساقي، ولزوجة القيء تجعل الحركة صعبة.

يتسع المجرى أمامي.. ثمة رجلين يتبادلان حديثا

مرحا، بينما يسبحان على ظهريهما. على الحافة البعيدة الضحلة، يميل أحدهما بنصف جذعه، وقد استخدم يده كمغرفة للشرب..

البلل وصل إلى صدري.. أسمع صوتا في السماء.. أرفع رأسي لأرى سحبًا صفراء تملؤها.. تندلع شرارة حمراء، وينهمر القيء. أرفع حقيبتي فوق رأسي، أدور لأعود إلى بيتي.. أو لعلي أجد موضعا ضحلا.. صيحات المرح تعلو من حولي.. رجال ونساء يلهون عرايا في قيء السماء والأرض، والبعض يتبادلون الكرة.

الانهمار يشتد، حتى غمرت تماما، وصرت أجاهد للوقوف على قدميّ. أحاول أن أعلو على منسوب القيء، أسقط على وجهي.. أحرك ذراعاي، فأجد الأمر أسهل من المشي.. انقلب على ظهري تاركا بحر القيء يحملني حيثما يشاء.. أحاول بيدي أن أمسح ما على فمي.. القيء المنهمر

يتواصل، متراكما فوق شفتيّ، يدفعهما بقوة.. تتسلل قطرة إلى جوفي..أحاول أن أبصقها، فقط لأسمح لأخرى بالاندفاع إلى داخلي..

أزدرد ما في فمي مضطرا.. أزدرد مرة أخرى.. أتذوق.. أبتلع.. أستخدم يدي كمغرفة لأنهل المزيد.

سـوق

وسط الزحام، ونداءات الباعة، يمضي بجسده الهزيل، حاملا أكياس مختلفة الأحجام. يجاهد ليسير، وقد تدلى ذراعاه على جانبي جسده، وقد بدأ يلهث تحت تأثير الحر. قدماه تحفران الأرض.. تتشبثان بها.. وبين لحظة وأخرى، يتوقف، يفرد ذراعيه ويثنيهما عدة مرات.. يلتقط بضع ذرات من هواء شحيح.. ثم يواصل المسير.

يمضي الحمار جارا عربته الثقيلة الممتلئة بالأحمال.. بين لحظة وأخرى يفرقع سوط بجانبه، حاثا إياه على التقدم. أذناه الطويلتان مشدودتان لأعلى.. رأسه مائل للأسفل.. قائمتاه الأماميتان تدقان بالأرض، بينما يسحب الخلفيتين وراءه، في نشاط أولا، ثم بوهن.

يفرقع السوط ملهبا ظهره، فيسرع.. يحمل أكياسه، ثم

يعود ويهدئ من سرعته، فيفرقع السوط مرة أخرى، فيسرع، ثم يعود فيتقدم ببطء.

تملكه التعب، فتوقف تماما.. فرقع السوط في الهواء عدة مرات دون جدوى.. انهال السوط على ظهره، فتمسك بمكانه في إصرار.. وبين فرقعات السوط، ومحاولة دفعه لإجباره على المسير، رمى ما بيديه، وانعطف في شارع جانبي.

تمر حنة

- « الورد كله كسا الجناين واشمعنى انتِ اللي شاردة منا «.

دوى الصوت الحزين بتلك الأغنية من لا مكان، كاسرًا حاجز الصمت، الذي بدا سرمديًا أبديًا.. مصدر الصوت غير محدد بدقة وسط ذلك الموات اللانهائي المحيط بالمدينة..

-»تمر حنة يا تمر حنة»

يأتي الصوت مرة أخرى، ولكن هذه المرة مع صوت خطوات تدق الأرض.. خطوات حزينة ،كصوت صاحبها الذي لم يدخل حيز الرؤية بعد..

- «خليتِ بينا وبعدتِ عنا «

من بداية الطريق لاح ذلك العجوز.. سائرا على ثلاث.. قدمان، وعصا تدق الأرض دقات متتابعة..

-» **الورد كله كسا الجنابن واشمعنى انت اللي شاردة منا**«

مسير طويل.. بحث.. فشل..منذ سنين طويلة تلامس كفاهما للمرة الأخيرة.. ثم ذهبت.. تلاشت كأن لم تكن..

-» **تمر حنة يا تمر حنة** «

يجوب المدن متنسما عبيرها.. يشعر أنها في تلك المدينة، دقات قلبه تخبره بذلك.. هل ستتذكره؟.. هل سيعاتبها على البعاد؟.. هل تشمئز من هيئته المزرية.. الجاكت الصوفي الذي لم يتغير منذ سنين.. لحيته البيضاء الكثيفة؟!

يمر عبر المدينة الصامتة.. أبواب البيوت المغلقة.. دقات قلبه تتصاعد.. على ذلك الباب بني اللون أسند رأسه، بعد أن هدأ قلبه.

-» **خليتِ بينا وبعدتِ عنا** «

يدفع الباب المفتوح بيده.. ويراها.. كانت هي هي.. ما تغير فيها من شئ.. إن هي إلا خصلات من شعرها الناعم تحولت إلى اللون الأبيض. جالسة على مقعد وثير كانت، شاخصة ببصرها تجاهه.. ملكة على عرشها.. ملكة في بيت مهجور.. مد كفه متحسسًا كفها.. لم تبدر منها أية حركة.. لم تفرح.. لم تناد باسمه.. لم ترفع يدها متحسسة وجهه..

-» **الورد كله كسا الجنابن واشمعنى انتِ اللي شاردة منا**«

انتهى العجوز من حفر القبر وتهيئته لاستقبال حبية عمره..

استلقت الحبيبة في مثواها الأخير.. أمسك العجوز بالمعول، وشرع في حفر قبر آخر.

عتبة النجاة

كان مدعوا إلى حفل خطبة أحد أصدقائه، والذي أقيم في بيت العروس.. منطقة لم يزرها من قبل. أعمدة الإنارة لم تكن مضاءة جيدا، لذلك فإنه بعد أن ترك بيت العروس، بما فيه من ضوء وضوضاء، بدا وكأنه انتقل إلى عالم آخر.

على الأرض الترابية سار، إلى حيث طريق المواصلات العمومي.. أخبروه أن يلزم الحرص.. المنطقة ليس بها صرف صحي.. كل البيوت تلقي بصرفها في نهاية ذلك الطريق الترابي.. فيما بدا كحمام سباحة مرتجل.

على ضوء القمر، وفوق أحجار عشوائية ،كان يخطو شاقا طريقه إلى الخارج.. مد قدمه بين قطع الأحجار الجيرية الضخمة.. خطوة.. خطوتان.. ثلاثة.. تشجع قافزا إلى الحجر الرابع الملوث بماء الصرف.. المياه تلوث

مقدمة حذائه.. وجه الحذاء.. غاصت قدمه بالكامل.

عاليا كان صوت الطرطشة الصادر عن ارتطام جسده بالماء.. غاص.. وغاص.. بلغ الماء صدره، ولم يصل للقاع بعد.. ضرب الماء بقدميه.. بذراعيه.. رفع رأسه لأعلى محاولا إبعاد وجهه قدر استطاعته.. المياه تفور.. تجذبه للأسفل.. الخدر يسري في جسده.. انهارت مقاومته.

عندما ارتمى في قاع ما، في نهاية تلك الدوامة من مياه الصرف، كانت المياه لا تزال تحيطه من كل مكان. وقف على قدميه.. المياه تبلغ وسطه. يرفع يده، مزيلا شيئا ما ذا رائحة نتنة من فوق وجهه.. يلقي بالشئ الطري على طول ذراعه.. البلل يملؤه.. الرائحة النتنة ما زالت هنا.

في الماسورة، التي تبدو بلا نهاية، يواصل السير. البرودة تحيطه جراء احتكاك ذرات الهواء بالمياه على جسده.. ثمة فأر يجري بجواره، وقد أزعجته طرطشة خطواته. يخلع قميصه، يحاول منع قماش البنطال من الالتصاق بلحمه..

-» اطلع من هنا إزاي؟؟»

توقف الفأر ناظرا له..

-» أنت سمعتني.. صح؟؟»

-» إيه أول مرة تعرف.. أيوه ب اسمع»

-» وكمان بتتكلم.. طيب أنا عايز اطلع من هنا»

-»تطلع؟.. بتفكرني بأول واحد شوفته منكم.. برضه كان عايز يخرج.. بس يا ابني أنت مش قد الخروج من هنا.. عايز تخرج.. اشرب «

-»اشرب إيه بالظبط؟؟»

نظر له.. هز ذيله مرتين، ثم غطسه في الماء القذر وطرطش به في وجهه قطرتين..

مذعورا نظر للفأر المتكلم..

-»وديني للباقيين»

-»هممم.. ما بلاش.. أنا رأيي انك تجرب وتشرب»

كان معسكر التائهين صغيرا.. فسحة واسعة على جانب المجرور، تراصت فيها عدة عشش..

-» اللي قبلك كانوا هنا قاعدين»

جذبه الفأر من طرف بنطاله، باتجاه جسم ما مكوم على الأرض.. أسمال بالية على جسد نحيل بارز العظم..

-» بعد فترة غير محددة، ح يكون هو اتحلل، وح تكون أنت ممدد مكانه»

-»..... «

-» ماهو نشف دماغه زيك وما رضيش يشرب»

-»طيب وهوه وشه ازرق كده ليه.. وسنانه.. عاملة كده ليه؟؟.. وإيه الشعر اللي مالي جسمه ده؟»

-»حاولت أقنعه.. لكنه رفض يسمع كلامي.. المكان ده مش مجهز للأجسام»

-» يعني إيه؟»

-» يعني أنت ممكن تيجي هنا ف حلم.. وتصحى منه عادي.. يعني روحك مرحب بيها هنا.. جسمك لأ»

-» يعني أنا ب احلم دلوقتي؟»

-» أنت غبي يا ابني.. ما هو لو بتحلم ح أقول لك اشرب ليه واتنيل ليه.. ما كنت استنيت عليك لما تصحى.. هيه ملو كوباية وتتحل المشكلة»

-» غمض عينيك وادلقها ف حلقك وما تحاولش انك تطاوع لسانك وتدوق»

-» لا.. مش قادر.. «

وضع الكوب أمامه واستدار لينصرف..

-» تعالى هنا انت ح تسيبني وتروح فين.. وبعدين يعني إيه فترة غير محددة «

-» ماهو هنا مافيش منطق لأي شئ.. ممكن تتحول بعد سنة وممكن تتحول بعد دقيقة «

نظر للكوب قليلا.. قربه من فمه.. تقلصت ملامحه.. وضعه على الأرض أمامه.. على الإضاءة الكئيبة مجهولة المصدر التي تحيط به كان يرى أظافره تتحول إلى اللون الأزرق.. رفع عينا متسائلة للفأر..

-» **افتكر كلامي.. بعد فترة غير محددة** «

كان اللون الأزرق قد امتد إلى ذراعيه.. ويزحف على رقبته، وعلى الأرض كان كوب مياه المجاري.

لعب عيال

جذبتني الضوضاء الطفولية القادمة من الشارع.. سارعت إلى الشرفة مستطلعا.. بدت لعيني تلك العصابة من الأطفال دون العاشرة متحلقة حول شئ ما..

كلب أبيض صغير.. ما لفت نظري هو عيناه البريئتان. وبرغم أنه كلب، إلا أنني لمحت في عينيه سعادة طفل يلهو، يتقافز وسط الأولاد الفرحين، ذيله يهتز رائحا غاديا كرادار، راصدا مشاعر الاهتمام والشغف الصادرة من الأولاد الصغار، الذين تناوبوا على حمله والتربيت على رأسه.

ابتسمت حنينا، وأنا أتابع الأولاد في تلك اللحظة يقربون إليه جثة فأر.. تشممها الكلب، ثم أبعد رأسه.. بعض الأولاد يحاولون دفع رأس الكلب عنوة إلى الجثة، وهو لا يزال مصرا على إبعادها.. طفل كالح الوجه، حافي

القدمين، يأتي من بعيد حاملا في يده هدية بالنسبة لهم.. حبل غسيل أخضر اللون..

تصاعدت صيحات الإعجاب والاستحسان من الجمع صغير السن.. لفوا الحبل على رقبة الكلب، الذي بدا بلا حول ولا قوة وهم يجذبون رقبته بالحبل، دافعين إياه لكي يمشي أمامهم، فلما لم يطاوعهم جروه خلفهم.. كل هذا وهو لا يتحرك، بل اختفت نظرة المرح من عينيه، وتوقف ذيله عن الاهتزاز، وبات يحس أنه سقط في فخ.

لما يئسوا من انسياقه معهم بالحبل، شدوا الحبل إلى آخر مداه، وربطوه في باب أحد البيوت، وتركوه ووقفوا غير بعيدين. هنا، بدأ الكلب الطفل في الصراخ، فالحبل المشدود يكاد يخنقه. وجدتني اندفع نازلا، منفجرا فيهم.. بأصابع مرتعدة أفك الحبل عن رقبة الكلب، الذي بدا متوجسا مما أفعل، مذعور العينين.... أخيرا انفك الحبل..

الكلب جامد في مكانه، وكأنما لا يصدق أنه نجا.. في

حين بدأ الأطفال يتجمعون حوله من جديد. اضطررت أن أزجره ليجري مبتعدا، قبل أن يمسكوا به ثانية.

من جديد تنبعث الضوضاء.. أسارع إلى الشرفة، لأجد الأولاد متحلقون حول الكلب، وهو يتحرك وسطهم هازا ذيله في فرح.

من بعيد

في كل يوم بعد خروجه من عمله الليلي، أثناء انتظاره لركوبة تقله إلى البيت، يراها.. على الجانب الآخر من الشارع تكون وقفتها، ربما انتظارا لما تركبه.

بنظرات عينيه يمسحها، يتفحص وجهها الملائكي الأبيض.. خصلة شعرها الحريرية الهاربة من سجن حجابها.. رداؤها الأسود الطويل الفضفاض، الذي يكبت فتنة محتملة.

في خياله تعاطف مع ظروفها، تلك التي تجعلها تعمل حتى تلك الساعة المتأخرة.. إخوتها الأيتام.. أمها المسنة.

حاول أكثر من يوم أن يعبر إليها.. يراها عن قرب.. لكنها دائما محاطة بسور منيع من خجله.

لكن ذلك اليوم، ومن ثغرة ضيقة في جدار الخجل، قرر العبور.. أسرع قبل أن تلتئم الفجوة.. وقف أمامها.. تبدت ملامحها.. عيناها.. شفتاها اللتان تزينهما حسنة بديعة، اختارت ركنا فوق الشفة العليا سكنا.

ابتلع ريقه.. وكشتاء ديسمبر خرج الكلام من فمه منهمرا على أذنيها.. أخبرها أنه يراها كل يوم.. أنه بها معجب..

وعندما انتهى، وقف يلهث.. نظرت له قائلة..

-» **ح تدفع كام؟؟**»

ديك العشة

في أعلى مكان من العشة، وقف الديك مزهوا نافشا ريشه. ملأ صدره بالهواء، وأطلق صيحة عالية، ناظرا لأبعاد فوقية، لا يدركها إلا هو. ملأ صدره مرة أخرى، وصاح ناظرا إلى ما تحت قدميه، حيث باقي سكان العشة، الذين أسلموا رؤوسهم ومناقيرهم للأرض، في عملية نقر جماعية.

انفتح الباب، وامتدت يد قابضة على الديك.. حاول الفرار.. صاح صيحة الذعر.. أطبقت اليد عليه.. انغلق الباب، ولم يعد بعدها إلى عشته!

ظل المكان العالي شاغرا، إلى أن رفع ديك صغير رأسه عن الأرض واعتلاه..

وقف قليلا نافشا ريشه.. ملأ صدره بالهواء، وأطلق صيحة عالية.

الجومار الأعظم

يوم القربان الأكبر..تخرج البلدة جميعها إلى الجبل البعيد، حيث تشتعل نار الجومار الأعظم.. نحمل إليه ولاءنا مع جزيتنا.

الطريق طويل، تدمي صخوره أقدامهم العارية.. ويلسع برده لحمهم المطل من ثيابهم..

-» **نحن لا ننظر إلى الجومار الأعظم**«

كذا قال له أبوه، عندما دنوا من الكهف المقدس.

دخل مع الداخلين، مطأطأ الرأس مثلهم.. أرضية الكهف ناعمة، ذات نقوش متداخلة.. ثمة إضاءة ضعيفة.. وضعت القرابين.. يدا أبيه تجذبانه للأسفل..

-» **اسجد** «

-» من أين أتى الجومار الأعظم يا أبي؟»

-» الجومار الأعظم لم يأت يا بني.. إنه موجود دائما»

-» هل له يدين وقدمين مثلنا»

-»من؟»

-» الجومار الأعظم.. هل لديه يدين وقدمين مثلنا؟»

-» لا تسل ولا تقل ذلك أمام أحد»

-» هل يمكنني أن أراه؟»

يبدو عليه الفزع، ويمد يده كاتما فمه -» اخرس.. ولا تذكر الجومار الأعظم إلا بخير.. وإلا فسوف تلقى عقابك.. الجومار الأعظم هو من يحمينا.. هو من يمنحنا الضوء المبارك لنتدفأ ولنرى»

-» يمنحنا الضوء ويمكث في الظلام؟»

تبدو عليه الحيرة..

في يوم القربان الأكبر.. تخرج البلدة جميعها إلى الجبل

البعيد.. حيث تشتعل نار الجومارلان الأعظم طالبة قربانها.

مع الداخلين، دخل الصبي مطأطأ الرأس مثلهم.. وضعوا قرابينهم وسجدوا..لم يسجد.. رفع رأسه إلى السقف.. يدا أبيه تحاولان جذبه لأسفل.. يدفع يديه.. يتقدم أماما في إضاءة خافتة.. يصطدم بأقدام ورؤوس ساجدة.. يلمح جدارا صخريا.. تدوي همهمات من حوله.. لا يكترث.. يدور حول الجدار.. يرى خيمة من قماش بنفسجي.. يدفع الصبي القماش بيديه..يراه مستلقيا على ظهره.. وبقايا من أسمال بالية تغطي عظامه.. الهمهمات تتعالى.. تقترب من الصبي.. أياديهم تتحسس الأرض محاولين العثور عليه بينما رؤوسهم لا تزال محنية..

-» **لاشئ.. لا يوجد شي**»

أمسكت به أياديهم.. أطبقت على قدميه.. سحبوه إلى الخارج.. الحصى الصغير يحتك بلحمه فيدميه.. خارج الكهف، وعندما تمكنوا أخير ا من رفع رؤوسهم، وجدت كفوفهم طريقها إلى وجهه وسائر جسده.. أبوه يحاول حمايته..

-» المارق.. الفاجر «

-» تريد أن تهلكنا أيها الغبي»

صرخ أبوه: «لم يقصد.. لا يزال صغيرا بعد»

-» لا يوجد شئ بالداخل « يصرخ فيهم بملء حنجرته..

-» أرأيت ما فعلت بسوء تصرفك أيها المهرطق.»

-» هجرنا الجومار الأعظم.. غضب علينا «

-» لن يحمينا أحد بعد الآن.. وستجتاحنا عواصف النار من الجبل»

الجمع الغاضب يحيط به من كل جانب.. أبوه بلا حول ولا قوة..

-» الجومار الأعظم يجب أن يرضى «

-» نعم.. دمائك القذرة هي قربان عودته «

-» هيا فلنحرقه «

-»لا.. يجب أن يسيل دمه على أبواب مملكة الجومار

الأعظم«

على باب الكهف، أوثقوه بالحبال.. حفروا حفرة، وألقوه فيها..

يصرخ مستنجدا بأبيه، عندما اصطدم الحجر الأول برأسه.. أبوه مكبل الذراعين، لا يملك إلا إطلاق صيحات الجزع والقهر..

عندما تغطت الحفرة بالأحجار، وهمدت الصرخات، دخلوا إلى الكهف مرة أخرى مطأطئي الرؤوس.. وسجدوا.

تجمعوا حول النار في حلقة سمرهم اليومية.. يغنون.. يحكون الحكايات.. من وسط الظلام المحيط بحلقة النار، أتتهم خطوات تخفي الظلال هوية صاحبها.. توقف الغناء والكلام.

عندما دخل إلى وسط الحلقة، كانت الدماء الجافة ما تزال تغطي جسده.. داست قدمه النار.. ساد الظلام.. خروا له سجدا.

دكان قديم

على كرسي متهالك، كان جالسا أمام باب دكان قديم، يحمل لافتة تحاول أن تتحدى غزو الأتربة . الباب الحديدي للدكان، والمفتوح دوما، لا يكشف أيا من معالمه..

دائما غارق في ظلام. أما هو، فملامحه وتجاعيد وجهه لا تدل على شئ، فلا يعرف منها هل هو شاب هده المرض، أم هو عجوز هده مرور الزمن. عيناه خاويتان كعيني سمكة.. ذراعاه متدليان بجانبه في استرخاء، أو ربما في وهن، لا يحركهما أبدا، فصار وجهه مهبطا للذباب.. بالرغم من مظهره الرث، يتوقف الزبائن بمختلف أعمارهم أمام دكانه..

-»**كيلو دقيق لو سمحت**«

ينظر في خواء ولا يرد

-»برشام صداع من فضلك«

ينظر ولا يرد

-»٣ متر صوف«

-»ما ترد علينا يا أخي بقى«

-»انطق«

-» شاور بإيدك«

-» بص لنا حتى«

يقوم.. يحمل كرسيه..ينسحب إلى الدكان.. يغلق الباب من الداخل.

مشوار

في الحمام، يفتح الصنبور ليتوضأ.. يحرص على إسباغ وضوئه، وتخليل أصابع يديه وقدميه.. لا يحب أن يمسح على جوربه؛ هكذا يكون الثواب أكبر. يرتدي ثيابه استعدادا للخروج.. هكذا صار جاهزا متوضئا.. لايتحرك من بيته إلا متوضئا.

في الشارع، ناءت يده بحمل كيس القمامة.. يمضي باحثا عن صندوق.. تحيطه الأشجار والخضرة من الجانبين، مرسلة بين لحظة وأخرى خليطا سحريا من روائح عطرية. في أول منعطف، كان الصندوق قائما، كنصب تذكاري تحيطه القمامة من كل جانب. اقترب منه بأقصى ما يستطيع، وألقى كيسه بداخله.

في التاكسي، كان السائق أربعينيا، ذا لحية نصف نامية

ووجه مريح.. من الكاسيت تنساب آيات القرآن الكريم. تنفس بعمق.. أسند رأسه على الكرسي تاركا نسمات الهواء الآتية من الشباك تداعب وجهه وخصلات شعره، قبل أن يرتج جسده بفعل الفرملة القوية.. السائق يفتح بابه..

-» مش تبص قدامك يا أعمى»

«ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات»

-»يلا يابن الوسخة»

«ولله جنود السماوات والأرض»

-»ح اطلع ميتين أمك»

«إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا»

نظر في ساعته.. فتح بابه ونزل

في المقهى، اتخذ مجلسه في ركن قصي.. اقترب منه آخر، وفي يده لفافة من ورق الجرائد..

مد يده بلفافة الجرائد.. مد الآخر يده بمظروف ترابي اللون.. فتح المظروف، اطمأن إلى وجود ذلك النسر الذي طال انتظاره على الأوراق..

يعلو صوت الأذان.. نهضا في يدهما اللفافة والمظروف.. أسرعا إلى المسجد.

طريق

يصعد إلى الميكروباص.. يضم الجاكت إلى جسده.. يختفي قميصه الأحمر، فلا يبدو منه إلا طرف الياقة.. يفتح الشباك المجاور..

يمتلئ الميكروباص، ينغلق بابه ويتحرك. تندفع نسمات الهواء تداعب وجهه.. خصلات شعره الطويلة تتبعثر على جبهته، تعابث يده أزرار الموبايل، يخرج سماعتين يدسهما في أذنيه. تنزلق السماعة اليمنى، فلا يكاد يعيدها إلى أذنه، حتى تنزلق اليسرى. كتم صوت الموبايل، نزع السماعتين، رفع الصوت إلى الدرجة واحد، ألصق الموبايل بأذنه. بين فينة وأخرى يبعده عنها.. يتسمع، ثم يعود يلصقه بها مرة أخرى..

-» **لو سمحت..**»

ابتلع ريقه.. أبعد الموبايل عن أذنه.. كان هذا الراكب الجالس بجواره..

-» **عبد الحليم ده؟؟**»

هز رأسه إيجابا..

-» **ممكن تعلي الصوت شوية..**»

مد يده رافعا الصوت للدرجة ثلاثة..

صوت من المقعد الأخير..

-» **معاك صافيني مرة؟؟** «

يرد بالإيجاب..

-» **طيب ممكن بعد الأغنية دي ما تخلص.. بس لو ممكن تعلي الصوت شوية..**»

رفع الصوت إلى أقصى درجة.. ألقى بالسماعتين من الشباك.

غواية

-» **ممكن تدفع لي لو سمحت»**

رفع عينيه إليها، حيث جلست في المقعد الواقع أمامه.. ابتسم هازا رأسه بالإيجاب..

-» **معلش أصلي نسيت الفلوس في البيت»**

تركت مكانها وانتقلت إلى جواره.. تحرك الميكروباص بعد امتلائه.. بجانب عينيه يختلس النظر إليها.. اهتزت العربة.. ترك مرفقه يحتك بجانبها بشكل بدا عفويا.. لامست ركبته ركبتها العارية.. تلامسا ثانية ثم ابتعدا. حركت ساقها قليلا، لتتماس مع ساقه.. يحاول تخيل شفتيها المطليتين بالأحمر تنفرجان بصراخ النشوة.. تركت فخذها ينساب ملتصقا بفخذه.. اختلس نظرة أخرى إليها.. تتطلع هي عبر الشباك إلى الشارع. من جديد تهتز

العربة.. يلتصق بها تماما.. قدمها الحافية تحك ساقه، تتسلل تحت رجل بنطاله.. يدها تتحسس ركبته.. فخذه.. سحاب بنطاله.. قبض على كفها.. سحب ساقه تجاهه قليلا.. التصقت به مرة أخرى..

-» **على جنب لو سمحت** «

نزل مسرعا.. قبل أن ينغلق الباب، نزلت خلفه.. مشى قليلا.. نظر وراءه.. كانت خلفه تماما. سارع الخطا.. السابوه ذا الكعب العالي يدق بسرعة، محاولا مجاراة خطوه الواسع.. توقف.. نظر إليها.. انعطف في شارع جانبي، وقد صار خطوه عدوا.

صورة قديمة

بينما هي تحدثه، يتأمل هو تفاصيلها.. يستكشف لأول مرة تلك التجاعيد التي غزت وجهها، التكشيرة المتمددة على ملامحها، هائشة الشعر.. ثوبها الوردي ملئ بالبقع، وقد وضعت ذراعها الأيسر في وسطها، بينما الأيمن يحمل مغرفة طعام.

تطلع إلى الحائط من خلفها، حيث صورتها القديمة تنظر له برقة، مزدانة بابتسامة ملائكية، تعلو شفتيها الشهيتين. ذراعها الأيسر في وسطها، بينما الأيمن يحمل وردة، وقد تدلت خصلات من شعرها المتموج على جبهتها.. ثوبها وردي طويل فضفاض، يضيق عند الصدر، معربا عن نهدين بديعين.. بينما تقف وحيدة في مكان ما.

أحنقها أنه لا ينظر إليها وهي تحدثه.. نظرت إلى حيث

ينظر.. وجدت أنها لم تعد وحيدة في صورتها القديمة.. صار بجانبها شاب يلف ذراعه خصرها.. التفتت إليه، فلم تجده.. بحثت عنه، فلم تر إلا ثيابه مكومة على الأرض تحت الصورة، ومعها خصلات من شعر أبيض.

زفارة

ترام باكوس واقف في المحطة، الباب مفتوح في ترحيب، اللوحة تحمل الرقم واحد في مربع أخضر. كل الظروف تدعوه للركوب.. المحطة لم يصلها ترام آخر منذ نصف ساعة.

يجلس في كرسيه، مدركا أن الرحلة ستكون أطول من المعتاد، وأن عليه أن يتحمل رائحة الزفارة الآتية من سوق السمك.

صغيرا كان، عندما أمره الطبيب بابتلاع بلورات زيت كبد الحوت، ذات اللون العسلي الرائق. دائما كانت باردة صلبة.. ذات مرة، نسيها، ليجدها في اليوم التالي وقد فقدت برودتها وصارت لينة.. عندما غرس بها سن قلمه الرصاص، انفجرت.. لوثت ثيابه ويديه.. غمرته رائحة الزيت المستخرج من الحوت.

الترام يقترب من باكوس.. رائحة الزفارة تنساب إلى الداخل عبر الشبابيك.. يسد أنفه بمنديله.. يتناهى إلى سمعه هدير يقترب.. من تحت عقب الباب تتسلل المياه.. ما يزال الترام يتقدم.. الرائحة تنتشر.. الهدير يعلو.. منسوب المياه يتزايد..

عندما توقف الترام في باكوس، كانت المياه قد وصلت صدره.. مياه لها رائحة اليود.. انفتح الباب، اندفعت المياه لتغمر كل شئ.. يحاول كتم أنفاسه.. يداه تجذبان الشباك عله ينفتح..

مع الماء، اندفعت جحافل الأسماك.. حاول الهرب.. حاصرته من كل جانب.. اندفعت كلها عبر فتحتي أنفه.

الوفاة المؤلمة لريسكي

اليوم، مات ريسكي!.. عندما استيقظ، وجده ممددا على أرضية دورة المياه. ربت بيده على فرائه الكثيف، فلم تصدر عنه أية حركة.. قلبه، فانقلب..سارع بنقله من أرضية دورة المياه الباردة المبللة بالمياه الراشحة من المرحاض..

وضعه على قطعة الخيش المخصصة لنومه.. نفض عن فرائه الرمادي قطع البياض والأتربة المتساقطة من السقف.

لم يكن ريسكي عجوزا.. كان مريضا، هكذا أخبره البيطري، واصفا له علاجا لحصوة الكلى التي أصابته..لكن ذلك لم يكن كافيا.. زوجته انهارت وصرخت، بشكل كان كافيا لأن يسرع الجيران إليهما.. شرعوا يواسونهما، وتطوع أحدهم بالنزول، وعاد بعد نصف ساعة حاملا صندوقا خشبيا، كافيا لوضع ريسكي بداخله.

اتصل بالمدرسة حيث يعمل، وطلب إجازة لليوم.. حمل الصندوق، رافضا أن يحمله عنه أحد. وافق على مضض أن تخرج زوجته إلى الجنازة، فلم يدخل معها في جدل حول رفضه لخروج النساء إلى الجنائز.

تحرك الركب إلى مقابر العائلة، بصحبة الجيران والأقارب، محاذرين من أن تتلوث ثيابهم بمياه المجاري الراكدة..مضت الجنازة تلتهم الناس بداخلها، فلم تصل إلى المقبرة إلا وكان وراءها جحافل من البشر. فتح القبر وسط النحيب والدموع.. وضع ريسكي.. أهيل التراب وأغلق القبر.. علا صراخ الجموع.

طبق اليوم

الحرارة الشديدة هي ما لفت نظره.. فعندما يتصبب عرقا في منتصف يناير، عليه أن يقلق.. قاس حرارته، فوجدها طبيعية.. مد يده إلى التلفاز، عله يجد شيئا ما عن ذلك الحر..

-»أهلا بكم مع حلقة جديدة من برنامج طبق اليوم»

يدير المؤشر إلى قناة أخرى.. نفس المذيعة ونفس البرنامج.. يدير المؤشر مرة ثالثة ورابعة وخامسة.. يستعرض خمسين قناة.. كلها تنقل ذات البرنامج!

يمد يده يطفئه.. يتراجع بعد أن يسمع صوت سائل ينسكب أو ينساب في المنور.. من شباك المنور المفتوح يرى المياه.. مياه قذرة.. ساخنة.. يدرك هذا من البخار المتصاعد.. منسوب المياه يصل إلى الدور السادس، وما يزال آخذا في

الارتفاع..لديه سبعة أدوار قبل أن يغرق أو يشوى.

عند الدور السابع، يتوقف الماء تماما، ويزداد هديره وبخاره المتصاعد، وقد غطت سطحه رغاو بيضاء.. يشم رائحة، يعرف منها أنه ليس ماءً.. إنه زيت.

ثمة أشياء تلقى أو تهوي إلى الزيت.. قطع من اللحم.. الرغاوي تزداد.. قطع اللحم تغوص وتطفو داخل أمواج الزيت.. وقد تصاعدت رائحتها، وبهت لونها الأحمر.... الزيت يواصل ارتفاعه.. يجرى إلى باب الشقة.. الأكرة تحرق يديه..

-»**يجب أن تغطي شرائح اللحم بالبقسماط الناعم بشكل كامل لتحصل على بوفتيك جيد..ب عد ذلك تلقى في الزيت المغلي وتؤكل ساخنة.. ساخنة.. ساخنة**»

يحاول أن يفتح الشباك المطل على الشارع ليستنجد بالمارة، لكن أكرته كذلك كانت ملتهبة..

يتسمر أمام التلفاز..

-»مرة أخرى لمن لم يسمع..نقدم لكم طريقة عمل البوفتيك.. أسمعت؟..يجب أن تلقيه في الزيت المغلي، بعد أن تغطيه بالبقسماط.. تذكر يجب أن يكون الزيت مغليا.. مغليا.. يا غبي ماذا تنتظر هيا أسرع»

يفتح الثلاجة مخرجا قطعا من اللحم.. يضع الزيت على النار.. يمسك بقطعة لحم ليضعها في المقلاة..

-»يجب أن يكون مغليا يا مغفل»

يضع قطع اللحم بعد أن يغلى الزيت.. يسرع إلى الشباك..الزيت يصل إلى الدور العاشر.. شدة غليانه تقذف بقطع اللحم إلى أعلى.. ترتطم بزجاج الشبابيك.. يتحطم بصوت مسموع..

-»يوضع في طبق ويؤكل ساخنا»

يتطلع من الشباك، وبيده آخر قطعة لحم.. ينتهي من أكلها.. منسوب الزيت يتناقص.. الحرارة تتلاشى تدريجيا..

-»شكرا لمتابعتكم.. نرجو أن يكون طبقنا لليوم قد أعجبكم»

أحمر + أزرق = ...!

"عندما يختلط الأحمر بالأزرق.. حينئذ.."

ما زال فتح الله كما هو.. مازالت نظارته الكبيرة تحتل وجهه الملئ بالتجاعيد.. ما زال البصاق يتناثر من فمه عندما ينفعل.. ربما لا تفهم جملة واحدة من كلامه المتسارع.. لكنك تدرك أنه غاضب.. دائما.. من قلة الحضور.. من مخالفة بعضهم له في الرأي.

لكن غضبه على متولي سليم كان هو الأشد.. دائما ما يعارضه.. يأتي بأفكار جديدة.. الجميع يصفقون له.. يستمعون إلى رأيه في نصوصهم الأدبية.. تركه متولي وأسس جماعته الخاصة.. تركه الموهوبون وانضموا إلى متولي.

يأتي الفراشون يحملون كرسيه.. من فوق الكرسي تفحص عيناه الحضور.. الحاضرون يتهامسون.. للمرة

الأولى يحضر فتح الله ندوة غير ندوته.. كان مظهره غريبا، خاصة مع القميص الأحمر والبنطال الأزرق المصاحب له.. يثبت الفراشون الكرسي في الأرض بالمسامير.. وتبدأ ندوة جديدة.

"عندما يختلط الأحمر بالأزرق.. حينئذ تتحدد المصائر.."

تغمس سامية فرشاتها في اللون الأحمر.. تمر بها على اللوحة البيضاء العملاقة.. تنظر في ساعتها.. الوقت يقترب.. تغمس فرشاتها مرة أخرى.. يصطبغ فضاء اللوحة بالأحمر.. ماعدا مساحة بيضاء محددة بالأسود، في منتصف اللوحة.. كما طلب فتح الله، لم تحضر الندوة.. يجب أن تتم مهمتها قبل أن تغرب الشمس.

من الأنبوب الأحمر، ينبعث خط لوني لزج.. قابله خط مماثل من الأنبوب الأزرق.. تعانق الخطان.. خلطتهما بالفرشاة.. تبدأ في تلوين المساحة البيضاء التي على شكل كائن ضخم.

"عندما يختلط الأحمر بــالأزرق.. حينئذ تتحدد المصائر..ويجري الحبر مجرى الدم في العروق.."

-" احمر على أبوه يا بطيخ.."

قالها متولي بصوت عال.. نظر الجميع إلى قميص فتح الله الأحمر وضحكوا..

-" ده حمار بس ولا حمار وحلاوة.."

ضحكوا مرة أخرى على مقولة متولي..

-" يا حلاوة خرزتك الزرقا.. تجنن.."

" لبس العيد ده يا فتح الله"

من مسجد قريب يعلو أذان المغرب.. متولي ما زال يضحك..

-" اااااااااااااااااااااااااااااااااااه"

صرخ متولي عندما غرس فتح الله قلما في يده..

"عندما يختلط الأحمر بالأزرق.. حينئذ تتحدد المصائر..
ويجري الحبر مجرى الدم في العروق..تتكامل المنظومة.."

انتهت سامية من تلوين الكائن الضخم بخليط الأحمر والأزرق.. وضعت الفرشاة جانبا.. ركعت على ركبتيها.

نزع فتح الله القلم، بعد أن أفرغ حبره الأزرق في عروق متولي، الذي لم يتوقف صراخه.. تقتحم المكان لفحة من هواء ساخن، تصنع دوامة هوائية حول فتح الله.. تشتد، فتصير إعصارا مصغرا، يحتوي جسده.. يخفي ملامحه.

الحضور يجرون إلى الباب.. ينغلق بصوت عال.. يحاولون فتحه، فلا يستطيعون.. يجرون إلى الشبابيك، يحاولون فلا..

"عندما يختلط الأحمر بـالأزرق.. حينئذ تتحدد المصائر..ويجري الحبر مجرى الدم في العروق..تتكامل المنظومة..ومن حطام الإنسان ينبعث الكائن القديم.. "

تنقشع الدوامة.. فتح الله ينتفض واقفا على قدميه، يزيح بقايا الكرسي القديم، ينفض الغبار عن ثوبه ذي اللون الخليط من الأحمر والأزرق، محاذرا من أن تمزقه مخالبه الطويلة..

"عندما يختلط الأحمر بـالأزرق.. حينئذ تتحدد المصائر..ويجري الحبر مجرى الدم في العروق..تتكامل المنظومة..ومن حطام الإنسان ينبعث الكائن القديم.. ويصطبغ الوجود بالدم.."

بذيله يلطم متولي.. يلقيه إلى آخر القاعة.. بقفزة طويلة يبلغه.. مخالبه وأنيابه تمرق خلال جسد متولي بسلاسة.. لم يبق من متولي إلا كومة.

الحاضرون يدقون على الأبـواب والشبابيك، وقد صنعوا بدقهم معزوفة متناغمة مع صراخهم...

وسط أشلائهم ودمائهم يقف فتح الله.. يخرج صوته مصحوبا بالفحيح

"عندما يختلط الأحمر بالأزرق.. حينئذ لا يبقى سواي"

الفهرس

إهـــداء إلـــى 5
إهـــداء 7
إهـــداء أخـــير.. 9
وقـت الأصـيل 11
حدث في يوم الجمعة 14

بـــرودة 22

جنيه واحد 25

دعـــوة 28

رائـحـــة 31

عتبة الغرق 34

ســـوق 37

تمر حنة 39

عتبة النجاة 42

لعب عيال 48

من بعيد 51

ديك العشة 53

الجومار الأعظم 54

دكان قديم 59

مشوار 61

طريق 64

غواية 66

صورة قديمة 68

زفارة 70

الوفاة المؤلمة لريسكي 72

طبق اليوم 74

أحمر + أزرق =.....! 77

الفهـــرس 83